Al-Abṣār (Research Journal of Fiqh & Islamic Studies)
ISSN: 2958-9150 (Print) 2958-9169 (Online)
Published by: Department of Fiqh and Shariah, The Islamia University of Bahawalpur.
Volume 04, Issue 02, July - December 2025, PP: 55-74
DOI: https://doi.org/10.52461/al-abr.v2i2.2427
Open Access at: https://journals.iub.edu.pk/index.php/al-absar/about

قدسية المكان عند إقبال: قراءة تحليلية جمالية

The Sanctity of Place in Iqbal's Thought: An Aesthetic-Analytical Reading

Prof. Dr. Abdel-Kader Ahmed Abdel-Kader Ruba'I
Yarmouk University, Jordan; The International Islamic Sciences University, Oman.
Former President: Jadara University, Jordan
kaderrubai@gmail.com

Abstract

This study offers an aesthetic-analytical reading of the concept of the sanctity of place in the thought of Allama Muhammad Iqbal. The central aim of the research is to examine how Iqbal redefines sacred space not merely as a physical or historical location but as a dynamic symbol deeply connected with spiritual consciousness, ethical responsibility, and collective identity. By analyzing selected poetic and prose texts, the paper explores Iqbal's philosophical engagement with places such as Makkah, Madinah, and Jerusalem, and investigates how these spaces function as sources of moral renewal, aesthetic experience, and civilizational awakening.

The study addresses key research questions: How does Iqbal conceptualize the sanctity of place within his broader metaphysical and aesthetic framework? In what ways does sacred space contribute to the formation of individual and communal selfhood in his thought? How does Iqbal's treatment of place differ from purely ritualistic or geographical understandings of sanctity?

Methodologically, the paper employs a qualitative and interpretive approach, combining close textual analysis with aesthetic theory and philosophical hermeneutics. This analytical framework allows for a

All Rights Reserved © 2022 This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License

nuanced understanding of symbolism, imagery, and metaphysical depth in Iqbal's writings.
The research highlights the contemporary relevance of Iqbal's ideas by demonstrating how his notion of sacred space can foster social cohesion, ethical awareness, and a renewed sense of purpose in modern Muslim societies. By reconnecting spiritual values with lived spaces, the study suggests that Iqbal's thought offers meaningful insights for addressing cultural fragmentation and moral disorientation in the present age.
Keywords: *Iqbal, Sanctity of Place, Sacred Space, Aesthetic Analysis, Islamic Philosophy, Cultural Identity-*

1. مهاد وفاتحة

يحتوي هذا البحث على دراسة الموضوع: الكناية وأثرها في نظم الكلام لإيضاح الأحكام الفقهية من كتاب بلوغ المرام من أدلة الأحكام للعلامة ابن حجر. ويشتمل هذا المقال بيان القواعد القطعية للأحكام الفقهية التي وردت في الأحاديث النبوية خاصة من خلال الكتاب المذكور الذي ألفه العلامة ابن حجر غفره الله سبحانه وتعالى – تأليفاً رائعاً ليكون طريقاً ابتدائياً للمرحلة الابتدائية، وزاداً استزادةً لمن وصل في هذا المجال إلى درجات عليا.

محمد إقبال شاعر الإسلام الفذ، اتخذ القرآن الكريم نبراساً لإضاءة الحياة الإنسانية بالمحبة والجمال واليقين، وتنقيتها من مسالك الكره، والنكران، ومزالق الشر، وألاعيب الشيطان. كما استصفى الرسول الكريم نبياً هادياً ومرشداً إلى الطريق السوي، والسليم لكل إنسان يبتغي الحق والعدل والصلاح في الدنيا، وحسن الأجر والثواب في الآخرة. وهو شاعر مبلج، ومفكر بليغ، حتى ليمكن عده فيلسوف الشعر، وشاعر الفلسفة.(1)

هناك مناح كثيرة طرقها محمد إقبال في شعره؛ لكنني سأقف على تصوره للمكان خاصة؛ فالمكان في الشعر روح رحبة، بل فضاء يفيض بإحساس الإنسان نحو أشيائه، وشؤون حياته، وما بعد الحياة؛ متخطياً حدود الأمكنة المادية، وتضاريسها الجغرافية، وأبعادها الهندسية. وهذا هو مفهوم المكان ودلالاته لدى إقبال؛ وهو لهذا جدير بالدراسة والبحث. يقول جاستو نباشلار في كتابه (جماليات المكان):"المكان الجدير بالبحث هو المكان الذي يمكن التعمق في تحديد قيمته الإنسانية التي يمكن الإمساك بها، والدفاع عنها ضد القوى المعادية. إنه المكان الذي نحب، والذي ينجذب نحوه الخيال والصور الفنية(2).

لقد كان المكان عند إقبال هو الحيز الذي انبلج نور الإسلام فيه قبل عصره، وفي أثنائه، ومن بعده. وبناء عليه يغدو المكانَ الذي له المكانةُ الجلى عند إقبال: هو المكانَ الإسلاميَّ، لأن الإسلام في كينونة إقبال هو منهج ثرٌّ للحياة، ورؤية ثاقبة منفتحة على الإنسان في تعامله مع الناس والأشياء جميعاً. ومن أهم الأماكن التي أخذت الحيز الأكبر في شعره: مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد قرطبة، وفلسطين، وغزنين.

سأحاول الوقوف عند هذه الأماكن المقدسة، وأبرز بعض الأماكن الأخرى التي شغلته، واحتوت مشاعره، وفكره. وسأتخذ منهجاً أتبعه في هذا البحث يقوم على الاتجاهات والأبعاد الآتية:

أ- المكان وأبعاده في تجربة إقبال الشعرية.

ب-جماليات القراءة.

ج- الأفكار الكبرى التي تؤسس للبحث في المكان عند إقبال.

د- دراسة الأمكنة المقدسة عند إقبال وما حواه كل مكان من تجليات علوية في الفكر والشعور.

هـ- أمكنة أخرى.

و- الخاتمة.

وسترتب أولوياتها على الأفضلية حسب عقيدة الشاعر. ستتصدر الأمكنة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، يتلوها مسجد قرطبة، فأرض فلسطين، ثم أرض غزنين.

أما التقنيات المفترضة في شعره فكثيرة ومثيرة. لكننا ندرسه مترجماً، لذا فشعره المترجم يوحي بالأساليب الفنية إيحاء قابلاً للاستنباط، لكن الصورة الحقيقية المتكاملة لهذه الأساليب هي في اللغة التي كتب بها الشعر، سواء اللغة الأردية، أو الفارسية. لكني سألتفت إلى أهمها في أثناء المعالجات الداخلية وفي الخاتمة، تماشياً مع محدودية البحث.

القراءة الجمالية:

ما دمنا قد أوجزنا معنى المكان في كينونة إقبال، فإنه من الجائز لنا بعد ذلك أن نوجز القول فيما تعنيه عبارة: (قراءة جمالية) ليكتمل فهم العنوان على نحو شمولي.

أما القراءة فتتشربها نظرية التلقي والتأويل التي اجترحها عالمان ألمانيا ينتميان إلى جامعة كونستانس،هما: هانزر و رتياوس، وفولفغانغ آيزر.إنها نظرية نافذة أعطت القارئ الكفؤ حرية القراءة والتأويل؛ ما يؤول بالتالي إلى تعدد القراءات للنص الواحد. وهذه القراءات تمنح النص الأدبي حياة نامية متجددة على الدوام.

وإذا كان ياوس توقف عند أفق التوقع للقارئ، فإن آيزر تجاوز ذلك إلى وصف فعل القراءة واستقبال النص، وجماليات التلقي؛ فألف فيما أسماه: فاعلية القراءة، والقارئ الضمني. وللإيجاز أقف عند مفهومه للناقد الضمني فقط. فقد تحول من مصطلح جماليات التلقي Aesthetic Reception إلى جماليات استجابة القارئ Aesthetic Response. وهو انتقال فكري وجمالي تطوري مهم، له ما له من تأثير معنوي وتطبيق عملي، وأن القراءة هي تجاذب جدلي بين النص وقارئه، تنتهي بتحليل كامل النص وتأويل معناه؛ إذ إن القراءة تعد العمل المحوري لفائدة المعنى، لأنها تحرك كل الأنشطة المتفاعلة في بنية النص وفاعلية علاقاته في الآن عينه(3). وتستند تلك القراءة الجمالية الشعرية برأيي الثلاثة أعمدة رئيسة هي: النص. والإنسان. واللغة.

النص:

النص هنا يعني النص الشعري الإقبالي، فهو نص غني بالأفكار العميقة.والرؤى البعيدة التي تعم العالم بأجمعه، وهو غني أيضاً بصاحبه ذي الشخصية الفريدة خلقاً وعلماً وقيمة وجرأة وانتشاراً، فهو - كما قال عن نفسه: هو الإنسان البسيط الذي تلقى دعوات الملوك والرؤساء الكبار، بسبب قوة تأثير كلمته في الناس حول العالم. والنص الفني الناجح هو النص الذي ينبثق من الانفعال الناضج رؤية وتكويناً؛ لذا فإن أفقه أفقٌ أدبيٌّ يحيل إلى فضاء لغوي موحٍ ومفتوح، كي يصبح قوة متحولة ينتجها القارئ في عملية مشتركة لا تتضمن قطيعة بين البنية والقراءة؛ ولا يكون المنتَجُ وصفاً لحالة شعورية آنية هائجة؛ لأن مثل هذه الحالة لا تنتج إلا الاضطراب والفشل، لكن حالة الانفعال الناضج هي حالة اختمر فيها الشعور بعد أن تجاوز صدمة الحدث المثير والغاضب، وألف رؤية نافذة في الحياة لا تقف عند وصف الحالات النفسية الموهومة، وإنما تجليها مسالكَ ودروباً لفضِّ ما يعتمل في النفس والعقل من اختلاف وتجاذب. وهذه هي حالة النص الشعري عند إقبال.

الإنسان:

في حديثنا عن الإنسان نتناول إقبال شاعراً وإنساناً منتجاً للنص؛ ليس في مجال الفن الشعري فقط،

ولكن في مجال الحياة الإنسانية عامة؛ كالسياسة، والاجتماع، والفلسفة، والمعرفة والمنطق والفن. ونتلقى كذلك الشعر المنتَج؛ فعلى المستوى العام يفترض فيمن يتلقى الشعر أن يكون ذا قابلية للفهم والاستيعاب، لأن الشعر تعبير عن تجربة إنسانية عامة، حتى لو خرج من تجربة خاصة، فالخاص، كي يكون فناً، لا بد له أن يرتفع بأشواقه ليصبح فضاء عاماً؛ فهو بطبيعة تشكيله إنساني النزعة، لكن متلقي شعر إقبال انقسموا بين متحمس له وهم الأكثرية من المسلمين، ومتحمس ضده وهم من المسلمين أيضاً، لكنهم ظلوا في وقتهم قلة.

اللغة:

اللغة هي استخدام للكلمات في تشكيل متشابك يؤدي معنى. وفرق كبير معروف أن المعنى إما أن يؤدى بلغة مباشرة ودون حيدة عن المفهوم الأصلي الذي وضع للكلمات المستخدمة فيه، وإما أن يؤدى بإيحاءات لغوية غير مباشرة كلغة الشعر؛ فهي لغة منزاحة عن المعنى الأصلي إلى معنى باطني تتوصل إليه بأدوات اللغة غير المباشرة كالصورة والرمز وغيرهما. ولذلك قيل: من العبث أن تسأل الشاعر عما يعنيه، فهو يستخدم ألفاظا تدل في الظاهر على معنى حرفي للتعبير عن معنى آخر ضمني، فلقد قيل: إن الشاعر الحقيقي يوجد من اللغة عاطفة؛ لكن هذه العاطفة - حين تنتمي إلى قصيدة - ليست عاطفة شخصية، فاللغة الناضجة ليس مبناها أن نطلق العنان لعواطفنا الشخصية، فهناك حاجة إلى ضبط النفس، بعيدا عن الانجرار وراء العواطف الطائشة، فضبط النفس وحده هو القادر على التحول إلى فضيلة استاطيقية جمالية(4).

وأظن أن هذه الفضيلة الجمالية هي التي وسمت لغة محمد إقبال، لذا ابتعدت عن السطحية إلى العمق، فانطلقت ترود النفس الإنسانية بأسلوب مثير ومؤثر تأثيراً روحياً جذاباً. فمن أقواله المزدانة بالجمال والفكر خطابه الشمس بقوله: "يا أميرة الشرق، أيتها الشمس المنيرة! إنك تثيرين كل ذرة في الكون؛ لقد أعطى نورك شعاعاً للقمر، وأعطى الحجر لمعانه وجماله. احتراق الشقائق من فيضك... ويمزق النرجس مئات الحجب حتى ينال نصيباً من شعاعك. أنت ضياء الصبح، وأنا غروب الليل، فأشعلي سراجاً في ضميري، وأنيري ظلمة ترابي، واستريه في تجلياتك حتى أحيل ليل أفكار الشرق نهاراً، وأشعل صدور أحرار الشرق كي يتحرر فكر الشرق من الإفرنج، ويكسب شعري مياهاً جديدة ولوناً آخر"(5).

وهكذا فإن تلك الثلاثية لأدوات القراءة (النص + الإنسان + اللغة) تدفع بخصائصها الموصوفة القارئ إلى أن يدخل عالمها مسلحاً بالمعرفة، مستثاراً بالانفعال المنضبط ليصل إلى المعنى البعيد المتواري خلف

التشكيل الناضج. إن هذا شأن كل قراءة مثمرة لكل معنى شعري مستبطن.

وقد يكون مناسباً تمثيل عملية القراءة هذه باللوحة الآتية:

الإنسان

القارئ الضمني

المعنى

النص

اللغة

المكان : الأفكار الكبرى.

المكان في فكر إقبال – بشكل عام - ليس محدداً بحيز أرضي معلوم فحسب، ولكنه فضاء مفتوح على كوامن النفس والعقل والروح. إنه الخيال الملتزم بالعقيدة الدينية، وبالرسائل العلوية غير المقيدة بزمان أو مكان، ولكنها محكومة بالقرآن والإيمان. الإيمان الذي يدخل إلى أعماق التاريخ البشري، ويتوقف عند فسحة فيه؛ هي رسالة الإسلام للتغيير الإيجابي نحو الأثمر، وبناء الإنسان العصري القادر على تجاوز الأزمات بصبر الثبات. فرسالة محمد إقبال في المكان هي -كما رمز لها مراراً- رسالة اللامكان (أو المكان المطلق) والأنموذج البشري: الإنسان الكامل. إنها الرسالة التي بشر بها وهدى إليها رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام. والمهتدي بها الشاعر والفيلسوف الإسلامي الكبير الدكتور محمد إقبال، ومن نسج على منواله.

فأي مكان يمكن أن يكون صالحاً لأداء مهمة الرسالة: دينياً، وسياسياً واجتماعياً مادامت هذه المهمة تنطلق من أصولها الإسلامية، وتذهب شرقاً وغرباً لتعليم الإنسان – زمن إقبال وما بعده – رسالة الحق والعدل والنظام والحب الإنساني الكبير. فكل الأرض ملك للإسلام، ما دامت دعوته للناس أجمعين؛ فالأرض هي عاصمة الإسلام والمسلمين - حسب إقبال، اهتداء بقوله تعالى: [وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ](6).

وسنداً لهذا فإن أفكار محمد إقبال غنية وواسعة سعة عقله وقلبه، وهي أشمل من أن يضمها حيز واحد. ومن الإنصاف أن نتبين مركزية تلك الأفكار التي واكبت المكان، أو انبثقت منه قبل أن نأتي إلى تحليل ما اختص به منها بعض الأماكن الإسلامية. سأتناول تالياً مركزية تلك الأفكار بسرد بعضها على أساس أنها أفكار كبرى أغنت دواوينه المترجمة التي قرأتها جميعاً. وسأختار مجموعة منها في ديوانين هما: (من مثنويات محمد

إقبال)، و(ديوان رسالة الشرق)، ذلك أنه من العسير الإلمام بأفكار إقبال كلها في كل دواوينه. ومن هنا اكتفيت بالديوانين على أساس أنهما يمثلان غيرهما من دواوينه الأخرى، وأن الدواوين الباقية ملأى بالأمكنة الإسلامية الكبرى التي سأحلل نصوصها وأقف على ما فيها من أفكار جليلة، وبعض الأساليب المستوحاة من لغتها أيضاً. وأبدأ بديوان (من مثنويات محمد إقبال)(7)قال:

-"المؤمن هو الوجود بين كمالات الوجود، وغيره ظل لوجوده، فإذا تمسك بحرقة "لا إله [إلا الله]"(8) فالقمر والشمس يأتمران بأمره".

-"ربما يصبح الإنسان صاحب نظر في العلم والفن، لكنه غافل عن وجوده. أزال نقش الحق عن خاتمه، ووئدت الآمال في ضميره".

-"الدنيا كلها صيد المؤمن، فهل يمكن أن يقال للبازي: اترك صيدك؟!".

-"الرجل الحرّ بحر عميق بلا ساحل ، فخذ الماء من البحر لا من الجدول".

-"إن الأمة التي لا تأكل السمَّ من أجل المجد ، سوف يُمحى مكانها من خريطة الوجود".

-"إن إدراك حقائق الأشياء هو ذهب تراثنا، فوا أسفاه لم تتح أسرارها للغرب، لأن عقل الغرب وفكره لا يفرق بين الخير والشر، وعيناه جامدتان، وقلبه صخر أصم".

-" الرأي بلا قوة مكر وخداع، والقوة بلا رأي جهل وجنون ".

-" تجولت بين العجم والعرب فرأيت قلة أتباع المصطفى، وكثرة أتباع أبي لهب".

-" كل من لم يغرس بذور الأمل في قلبه وطئته أقدام الآخرين كالحجر".

- "لقد بنى إبراهيم الكعبة وجعل التراب ذهباً، فعمِّر بالذاتية بدنك، واجعل ترابك ذهباً".

هذه أفكار وحكم عشر خرجت من عقل إقبال وروحه، فكانت ذات أبعاد فكرية مفيدة وغير محددة بزمن، لكنها منظومة بإخلاص الشاعر لدينه، وأمته، وذاته المحترقة بـ(لا إله إلا الله) ككل مؤمن، مثلما يعلمنا، لكي يأتمر القمر و الشمس بأمره. وهذه الأفكار ترجمة عملية طبقها الشاعر على نفسه قبل أن يطلقها حكما".فرسالته إلى الإنسان العالم الغافل عن الحق أن يصحو إن أراد أن يحيي الآمال الموؤودة في ضميره. وهو يتخذ من الصقر صورة يحمّلها فكرة الحرص العام؛ فمادام الصقر حريصاً على صيده، أفلا يليق بالمسلم – صائد الدنيا- أن يكون حريصاً على صيده كذلك؟!". ومن خلال ولائه لأمته الإسلامية وجه لها نصيحة تقول: إن كنتِ حريصة أن يكون لك موطئ قدم في العالم، عليك أن تردي المهالك لتحقيق ما تبتغين. ولأن إقبال حر

أطلق حكمة للحر أن يكون هدفه عاليا كالبحر ولا أقل من ذلك. ومن خلال الأنفة التي امتلكها، والأمل الذي كان له منهج حياة، حث المؤمن على امتلاء القلب بالأمل، فهو مصدر الأنفة والمقام الرفيع ، وإن فقده غدا حجراً يداس. ومن باب إخلاص هدُفِ عال مسلم للعمل الدؤوب ليصير التراب بيده ذهباً مثلما صار بيد إبراهيم عليه السلام في بنائه الكعبة. ولما كان له موقف سلبي من الغرب، فقد رآه لا يفرق بين الخير والشر، وقلبه صخر أصم، ثم صدر عن حكمة مؤداها أن الرأي بحاجة إلى قوة، وأن القوة بحاجة إلى رأي. وهي تتوافق مع بيت المتنبي الشهير:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

وأخيراً سجل صدمته مما يجري في العالم الإسلامي حين علم بالخبرة: أن الكفة تميل عن الخير الممثل بمحمد عليه السلام إلى الشر ممثلاً بأبي لهب.

أما الأفكار الكبرى المستقاة من ديوان (رسالة المشرق)(9) فهي الآتية:

-"قائد الملة والمليك المرتجى، هو من يكون البرق والرعد نتائجَ سيفه، فإن يكن جسده غارقاً في الدروع، فإن له في الصدر قلباً متشحاً بخرقة صوف".

-"دنيانا التي وجودها عدم،تلد الضرَّ توأماً لنفعها، فجددالقديم، وانتهج خطة جديدة، فقلبنا لن ينغلق على الأمس والبارحة".

-"ما أعجب ما كان يقول طائر مترنم لغصن في البستان: بح بكل الذي في صدرك، سواء أكان نشيداً، أم نواحاً،أم تأوهاً!".

-"تتجدد الأماني في كل لحظة، فليست الحياة بمستقرة على صورةواحدة،فلوكان ليومك وضْعُ أمسك،فإن شعلة الحياة تكون قد انطفأت في كيانك".

-"علمني شيخ عارف هذه الحكمة، ما أجمل أن يكون الطريق إلى المنزل ملتوياً!".

-"أيها الطفل! هذب نفسك بنفسك، مسلم أنت، فدع النسب جانباً، وإذا فاخرك العربي بالجِلْد، والعِرْق، والدم، ولونِه الأحمر، فدع كونَك عربياً".

-"انحت طريقك بفأسك،ففي السير في طريق الآخرين عذاب،فلو أنك تنجز عملاً نادراً بيديك، ستثاب عليه، وإن كان قبيحاً".

-"كن فيكون" فلا شخص ظاهر سواك، انهض وسر فيدروب الحياة دون خوف، فلا شخص في هذه

الدنيا سواك".

-"إن الشاعر بألحانه العذبة الساحرة، يستطيع أن يحول مآسي الحياة إلى أفراح.

-"لا تقل إن أشياء الدنيا زائلة، فكل ثانية من عمرنا تعلن الخلود، خذ اليوم بقوة لأن الغد إلى الآن ساكن في ضمير الزمن".

وهذه عشر حكم أساسها تجربة محمد إقبال في الحياة، لكنها تجربة عميقة إلى درجة أن جعلت من صاحبها فيلسوفاً يهدي الناس إلى سبيل الحق والإيمانوالعصرنة: فرأيه فيمن ينصب ملكاً أن يكون إنساناً فيه القوة وفيه الرحمة أيضا؛ وهذا هو مستوى التوازن الإنساني الرفيع،ولما كان مؤمناً بالتطور فقد دعا إلى التجديد وعدم الركون إلى الماضي، أو الانغلاق عليه كما قال. ولما عرف الإنسان على حقيقته، أراد له الراحة والهناء، وقد لا يتحقق ذلك بالكبت والابتعاد، لذا نصحه بالانفتاح والبوح مهما كان هذا البوح: فرحاً أو ترحاً. وما دام الإنسان يعيش الحياة المتغيرة، فإن عليه أن يتابع تغيرها بآمال عراض متجددة كل يوم، وإلا فهو سائر بنفسه إلى الزوال البطيء. أما لماذا تعلم من شيخ عارف روعة أن يكون الطريق إلى المنزل ملتوياً، فلأن هذا ينسجم مع فلسفته في الحركة الدائمة، وسلوكه المسالك الصعبة إلى مبتغاه.

وإقبال يطبق المبدأ الإسلامي في المساواة بين المسلمين على أساس التقوى لا النسب، لذا لجأ إلى الطفل لينشأ منذ الصغر وهو عارف موقعه من مجتمعه الإسلامي، وخص العرب بذلك، لأنهم أولى بالمبدأ؛ فقد طبقوه وساروا عليه زمن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام. ومن خلال الاستقلالية الذاتية والعمل الدؤوب المنتج والباعث على الاعتزاز ألح على أن يعتمد الإنسان على نفسه، وأن ينتج إنتاجاً يثاب عليه، حتى لو كان هذا الإنتاج متواضعاً، ثم إن الثقة العالية بالنفس عند إقبال شاء أن يزرعها في الإنسان وخاصة المسلم. لقد أرشده للاعتزاز بنفسه دون خوف أو وجل، ما دام الله تعالى خلقه حراً. ولكون إقبال شاعراً مبتهِجاً ومبْهِجاً، فقد أراد أن يكون الشاعر مصدر فرح في محيطه. وهو متفائل، يحمل إيماناً عميقاً بما تعلمه من القرآن الكريم؛ فالخلود بمتناول يد الإنسان الصالح، لأن جنة الله بانتظاره. لقد أراد له إقبال: أن لا ييأس، وأن يعمل بنشاط، ويأمل بالثواب.

أهم الأمكنة عند إقبال:

نأتي بعد أن حظينا بباقة أفكار وحكم منتمية إلى روح الإسلام، وهادية إلى نور الإسلام، لنطل من

خلالها على أهم الأمكنة الدينية المقدسة عند المسلمين نبدؤها بالمدينة – مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام:

لم تتح فرصة زيارة الحجاز لإقبال، لكنه ظل يحلم بالزيارة في يوم ما، إلا أنها أتت روحياً لا عياناً بعد أن أصبح شيخاً مريضاً وعاجزاً؛ فزار مدينة المصطفى ورآها بروحه لا بجوارحه؛ وعاش تجربة الرحلة إلى هناك، فنقل مشاعره وهمومه إلى سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

سأعتمد في قراءتي الذاتية على أقوال إقبال مثلما أوردها أبو الحسن الندوي في كتابه القيم: روائع إقبال(10).استخرجت نصوص إقبال من الكتاب؛ فجمعتها ثم قرأتها وعشت معها وقلت فيها ما هداني الله إليه مبتعداً عن تأثري بقراءة العالم لجليل الندوي لها، فالآتي هو ما أنتجته قراءتي الخاصة لنصوص إقبال. وقد حاولت الاحتفاظ بروح إقبال وجمال شعره ما أمكنني ذلك.

ناقةالرحلة:

بدا الرحلة على ناقة اتخذها صديقاً يبثها ما يشعر به من غبطة في مسيرته المتأنية صوب الحبيب. خاطبها برفق أن تطيل الطريق في مكان قدسي رحيب. قال: (قلت للناقة وقت السحر: يا حبيبتي! تهدّي في سيرك، فالراكب مجروح، ومريض، وعجوز. فسارت تخطو كالسكران حتى إنك تظن أن رمال الصحراء تحت قدميها حرير). كانت الصحراء لإقبال مركز الجمال، ففيها تسير القوافل، وتقام الصلوات، وتؤدى السجدات على رمالها المحرقة، فتترك على الجبين أثراً. ومما جمل الصحراء أن مساءها منعش، كأنه الصبح المشرق، وأن ليلها قصير، ونهارها طويل، لذا طلب إقبال من السائر فيها أن يخفف الوطء، فإن كل وردة من رمالها – حسب رؤيته -محزونة مهمومة، لكثرة ما شاهدت من مآسي العابرين منها وإليها.(11).

ومع أن أمير القافلة أعجمي لا يعرف لحناً عربياً، لكنه كان يعزف نغمات تبعث على الارتياح، وتحث على الاندماج في النغم بانسجام. لقد توجه إقبال للمدينة على الرغم من شيبه وكبر سنه، إلا أنه كان جذلان يغني وينشد الشعر بفرح غامر، ولا عجب من ذلك؛ فهو في رحلته إلى مدينة الرسول - عليه الصلاة السلام- شبيه بالطائر الذي يعود إلى عشه مستبشراً. وكان في الطريق بشوشاً يستبطئ الوصول احتفاء بالطريق، بل يقترح على سائقه أن يأخذ طريقاً أطول كي يعيش الأشواق. ولدى وصوله المدينة بكى سروراً لأن الحظ أسعده – مثلما تخيل- بلقاء الحبيب بعد طول فرقة وشدة اشتياق، وهو سعيد أن منحه الله، دون غيره، هذه السعادة. وقد نسب ذلك إلى الحب الذي يملأ قلبه. قال: (لا عجب، فإن المحبين المتيمين أكرم هنا من الحكماء المتفلسفين، يا سعادة الجد! ويا حسن الطالع! لقد سُمِح لصعلوك مملوك أن يدخل على السلاطين والملوك)".

الأمة الإسلامية:

ويشكو للرسول الحالة المتردية التي أصبح عليها المسلم القابض على دينه وإبائه، فقد سقط من عليائه كئيباً حزيناً دون أن يعرف سر ذلك. إنه والأمة الإسلامية كلها بحاجة إلى لطف الله، لما يسود فيها من فوضى واضطراب. وهو ينسب ذلك إلى غياب إمامها عنها، وكأنه يقول: أين هي الآن؟ وأين هي حين كنت أنت إمامها يارسول الله ؟!. والأن كى أنه ذكر أن القرآن العظيم الذي فُتح العالم به غدا مهملاً مركوناً في زوايا مظلمة، (فتراكمت عليه الأتربة ونسج عليه العنكبوت). لقد فقد المسلم المغامرة ، التي كانت سلوكه في القديم، بل فقد النور من عينيه، ولم يعد السرور يفد على قلبه، كما لم يعد يعرف الوصال. وينتهي به القول إلى أن المسلم تحول إلى الضد مما كان في زمانك يا رسول الله. لقد أصبح كسولاً متواكلاً؛ مثلما هو في الصورة التالية الدالة: (إنه طائر مدلل ، كنت تطعمه بيدك، وقد ربيته بالفواكه، فشق عليه البحث عن رزقه وقوته في الصحراء). فأبعاد الصورة متوارية في ظل الكلمات؛ فالشاعر يعلم الإنسان جدية اعتماده في طلب رزقه على ذاته ، فلا أحد يمكن أن ينوب عنه في هذه المهمة الجليلة الصعبة، خاصة إن وعينا رمزية الصحراء القاحلة القاسية. فمن ينشد العيش فيها لا بد أن يؤهل نفسه للصبر والمشقة؛ فالصحراء – لأنها كذلك - أنجبت العظام الذين فتحوا الدنيا بقدرتهم وصبرهم وجلادهم واتباعهم سنة نبيهم العظيم. ولدى استكمال الصورة للمسلم قديماً وحاضراً قدم إقبال اعتذاراً للرسول الكريم باسم المسلمين فقال : (إن جملة القول: ما كنا جديرين بك يا رسول الله).

المراكز العلمية:

لقد ضم في شكواه كل المراكز والاتجاهات الفكرية والأدبية في زمنه؛ فرآها في حال من الضعف والهوان: فالمراكز الروحية غدت فقيرة لا تملك قوت القلب، ولا تحمل رسالة الحب. ومثلها المراكز العلمية فقد أمست جامدة الفكر، لأنها اكتفت بالتقليد من جهة، وترديد ما كان في الماضي من جهة ثانية؛ فليس هناك ابتكار ولا إبداع. ولما عهد عن إقبال السفر والتعرف على ما في العالم، راح يقيس الحالة بالحالة ليصل إلى نتيجة واحدة، هي أن المسلم مغيب، فهو بعيد عن الإنتاج وترْك أي أثر له قيمة. لأجل هذا أتت شكواه مما يجري في المحيط الإسلامي، وخاصة لدى رجال الدين منهم. قال: (لقد شق عليما أراه من سوء حال المسلمين يوماً، وشكوت إلى ربي فقيل: ألا تعرفأن هؤلاء يحملون القلوب ولا يعرفون المحبوب؟!).

لكنه مع ذلك لم ييأس لأنه يعلم أن قدرة المسلم - قوة وضعفاً- متأرجحة الزمن، فإذا كان الزمن قد أدار لهم ظهره اليوم، فإنه قد يجبر على تغيير لونه في يوم قادم. إن ثقته بالمسلم الحق قوية؛ فهو، وإن كان ضعيفاً الآن، فإنه قد يخرج قوياً من بعد. قال: (إن المسلم، وإن كان تجرد عن أبهة الملك والسلطان ، ولكن ضميره وتفكيره لا يزالان ضمير الملوك وتفكيرهم. وإنه إن قدر له أن يعود إلى مركزه ، كان جماله جلالاً، وكانت له سطوة لا تطاق).

حكايته هو أمام الرسول:

تمثلت حكايته أمام الرسول صلى الله عليه وسلم في عدة جوانب ألخصها في نقاط:

أ- أنه في عمر الشيخوخة ضعيف، ويستحق العناية والعطف، ومما زاد في ذلك أنه قضى حياته في صراع دام لم يهدأ.

ب- اتخذ جلال الدين الرومي أنموذج حياة له، فعلى الرغم من أنه انتقد بعض المتصوفة لأنهم لم يتبعوا تعبدهم عملاً ناصحاً وفعلاً مصلحاً، فإنه رأى جلال الدين الرومي مختلفاً حين رآه ثائراً مع كونه صوفياً. ومن هنا تعلم منه واتخذه مثلاً يردده في أكثر أعماله، قال عنه:(لقد أذنتُ بالحرم كما أذن بالأمس جلالُ الدين الرومي، فقد تعلمتُ منه أسرار الروح والحب. لقد كان ثائراً على فتن عصره، وكنت ثائراً على فتن عصري).

ج- طريقة إفادته من علوم الغرب مميزة؛ فهو على شدة كرهه لمنطلقات هذه العلوم الأرضية الإلحادية الجافة وخاصة علم الفلسفة، والعلم العام، فإنه عاش معها جزءاً من حياته، واقتطف منها علماً ومعرفة، حتى مع كونه يتلقاها كارهاً إلى درجة وصفه دروس الحكماء بالمصدعة لرأسه، والمكدرة عليه باله. والسبب كما يقول: لأنه (نشأ في حضانة الحب والإيمان، فلا يناسبني، ولا يملأ فراغي إلا العاطفة والحنان).

د- نظرته للعالم الديني في زمنه سلبية تماماً، لأنه عالم كثير العلم قليل القيمة، ذلك أن القيمة تتحقق حينما يجتمع العلم والقلب معاً، وهذا غير متحقق. من هنا شبه هذا العالم بالحجاز في زمنه لأنه يحمل علماً كثيراً وعقلاً كبيراً، ولا يحمل معه شيئاً من حرقة القلب، ونداوة الروح. وقد جمع الأصل والصورة في قولة واحدة، يقول عن العالم الديني: (أخذ من الأرض المقدسة خشونتها، وصلابتها، ولم يأخذ منها رطوبتها ونداها، فأصبحت أرضاً بلا زمزم...).

هـ- وهو يشكو من مادية عصره الذي لم يجرب أياً من القيم، فهو بعيد عن الإخلاص، ولوعة القلب، لكنه متعلق بالمادة، مبتعد عن الدين والإيمان. من هنا شعر إقبال بوحدة مؤلمة، لأنه - مثلما قال- أصبح غريباً

في عصره شرقاً وغرباً، حتى راح يغني وحده ويعيش وحده، قال: (وقد أتحدث إلى نفسي، وأخفف من أشجاني وآلامي).

و- وينتهي في شكواه إلى شعوره بالإهمال؛ على الرغم من أنه سعى إلى تنفيذ أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم ، في تبليغه الناس رسالة الحياة والخلود، وبث الحياة والنشاط في الروح. لكن قساة القلوب من شعبه المسلم وقفوا في طريقه، وأرادوه أن يبقى عند القشور كالنوح على الأموات، فأين هذا من غاية الرسالة المحمدية العالية الهادية إلى الحق والعمل والخلود؟! وفي هذا السبيل أراد تأكيد فخره بنفسه في إنجاز ما تحقق له وللأمة بجهده وجهاده ، إذ قال باعتزاز: (إنني لم أبع نفسي وضميري لأحد ، ولم أستعن بأحد في حل مشكلاتي، ذلك لأني اتكلت على غيري مرة واحدة ، فسقطت من مقامي ، وعوقبت بالهوان، مئتي مرة). فرسالته هنا قوية لأنها تعلم الإنسان الواعي كيف يمكنه الإفادة من أخطائه، ليحول الانكسار إلى انتصار.

مسجد قرطبة:

أما المكان المقدس الثاني، فهو مسجد قرطبة، إذ زاره إقبال وصلى فيه عندما زار إسبانيا (الأندلس)، وقال فيه قصيدته العظيمة التي سجل فيها حسرة كل مسلم على ضياع الأندلس، فكان خير شاهد مبين يترجم الإحساس والأماني والحسرات لخير أمة أخرجت للناس.

تيسر لي نص إقبال في مسجد قرطبة ضمن قصائده في ديوان (جناح جبريل)(12)، ومع أن أبا علي الحسن الندوي استعرض النص في كتابه (روائع إقبال)، فإني فضلت أن أعتمد تحليلي الخاص من الديوان المذكور. وسأحاول تقصي أفكاره من خلال هذا النص.

الزمن:

بدأ إقبال في خطابه المسجد بفكرة الزمن ممثلاً بالليل والنهار، وعلى مبدأ أن الإنسان بينهما هو من يقوم بالحدث؛ يعيش الحياة ويتهيأ للموت محكوماً بتقلب الزمن في ليله ونهاره. وشبكة الليل والنهار منسوجة بخيط من حرير ملون بالبياض والسواد ، لكن الإنسان ليس بعيداً عن صنع أعماله. فالنـــهار -حسب رأيه– عباءة تنسجها الذات بمقياس لونها، ولكن صرخة الأزل تلازمها ليلاً نهاراً. أي أن الدنيا ليست بدايتها ونهايتها بعيدتين، فهما متلاصقتان، ويبقى للإنسان في الحياة الاختيار بين السمو أو الإنحطاط. وما دام الإنسان مرتبطاً بلصيقه الإنسان، فإن قيمة كل منهما تنعكس سلباً أو إيجاباً على الآخر، لأنهما متلازمان بحد الزمان ،

والمكان.

إن زمن الحياة قد يكون حالكاً لأحدهما، وضاحكاً لغيره، فهو بين العرس والأفراح من ناحية، والموت والأتراح من ناحية أخرى. لكنهما في النهاية مجموعان في لحظة واحدة ؛ هي لحظة الأبدية : الموت والفناء. فالفناء قدر كل كائن، وكل قيمة، وكل جمال، وكل آثار باطنة وظاهرة.

العشق :

لكل مقطع من مقاطع القصيدة خيط يشده إلى واقع الحال بالنسبة للمسجد. فإذا كان المقطع الأول ينبئ بأن لكل شيء بداية ونهاية – وهكذا هي حال المسجد، فإن المقطع الثاني - مقطع العشق – متعلق بالمسجد وعشقه من المؤمين بالله. إنه كان معموراً بالعشق. والعشق يتجاوز العلاقات المعلومة. إنه أبعد وأعمق: فالعشق تجاوز الحياة والموت. إنه الثبات أي الخلود في الجنة. وهو مقترن بالزهد زيادة في رونقه. ثم إن العشق برأي إقبال متعلق بكلام الله، وكل ما هو صادق وجميل. إنه أصل الحياة والموت، وهو سبيل فيضان الزمن وعصر الصفاء هو عصره. ومن أقواله فيه: " العشق أنفاس جبريل، العشق قلب المصطفى، العشق رسول الله، العشق كلام الله".(ص122)

ولعلي أفهم من هذا التعدد الأكمل والأبهى للعشق أن العشق هو الله؛ خالق الخلق، وخالق الزمان والمكان والإنسان، وكل ما هو جميل وبهي. فالحياة نورها ونارها من العشق، وروح العشق أكبر وأعمق من الحب الذي نعرفه، فهو حب الله والجنة والملائكة، وكل ما هو كريم في الآخرة.

إنني أشعر أن إقبال أولى، في حديثه عن العشق، الكرامة العالية؛ فهو حين يتحدث عن العشق إنما يتحدث عن عالم آخر بعيد، لكنه العالم الأجمل والأبقى. وبناء عليه فإن مسجد قرطبة يتمثل له الآن أبعد من كونه مجرد مكان أرضي. إنه في أعماقه أبعد من كل مادة ظاهرة ومعنى قريب؛ فالبناء والساحات والأعمدة وغيرها من موجودات ليست من مظاهر الوجود ، وإنما هي مآثر من مآثر الله، لأنه أثر من آثار العشق. قال: "يا حرم قرطبة، وجودك من العشق. صورة العشق خالدة لا يعتريها الفناء. إن معجزة الفن من ظهور دماء القلب".(ص123)

الفن ومعجزة البناء :

الفن إبداع ظهرت معجزته في إخلاص بانيه الذي بذل فيه دماء قلبه. لقد بدت المعجزة في صياغة

الفن على البناء: اللون، وحجارة اللبنات، لكن هذا قاد إلى ما ليس على ظاهر البناء، وإنما على ما في داخله. فالخيال تسرب إلى الروح فأنعش في متلقي الفن أدواته من القيثارة ، والأصوات في الكلمات. وما الكلمات إلا كلمات الله وآياته من القرآن الحكيم ، لذا استغرقت كيان الشاعر، وتناغمت مع إيمانه في استحضار كينونة الوجود على أرض خالق الوجود في عالم الخلود. فالكينونة التي أوجدت من داخلها بناء، لم تكن كافية لإيجاد البناء الفريد؛ أما حين امتزج الفن بالعشق المعبر عنه بصور ألواح القلب، ودم الكبد، فقد أرتك الفن في إبراز معجزة البناء من الداخل، وما يرمز إليه. لقد كانت تلك الصور الفضلى هي القابعة خلف أعمدة المسجد، وفنائه، ممثلة بخطوط الفن الرفيع. فبعد أن مستها حرارة العشق والإيمان، أمست فضاءات تسبح في عالم الخلود. هكذا استقبلها إقبال الشاعر الذي تردد في ألياف سمعه، ونبضات قلبه، نغمات النشوة والطرب واستثارات غليان القلب تشوقاً وارتياحاً، قال:(لقد بنيت ألواح القلب بقطرات دم الكبد، وصوت الحرقة والنشوة والغناء تبعث من دماء القلب).(ص123)

فالحرقة عنده هي تحول من السمة الأرضية إلى السمة السماوية. حركتها داخلية، وصوتها من دماء القلب يسّاقط في عالم الروح، بعيداً عن كل ما هو مادي. ولذلك ربطها إقبال بحرقة الصدر التي تحركه ، وتضيئه: (إن آهاتي محرقة للصدر وفضاءك ضياء للقلب).(ص123)

إن إقبالاً - على الرغم من آهاته تلك- يبعث فيمن حوله البهجة بما رأى وخبر، وقد أوصله علمه المستبطن إلى أن صير صدْرَ الإنسان – وهو مصدر الإيمان الحق – واسعاً سعة العرش المعلى. وهو يقف هنا ليصل حدود الخيال خارج الإيمان، فقد يصل بصاحبه حد السماء الزرقاء، إلا أن هذه الرؤية، وإن كانت خيالية، تتضاءل أمام الحرقة والخشوع في السجود.(ص124). إنه لا يتكلم متخيّلاً هنا، وإنما يتحدث عن خبرة ذاتية من داخل نفسه.

ويدخل بعد هذا في مقارنة ملتهبة بينه في حالتي الكفر والإيمان، ليصل إلى كنه رؤية كل منهما للإيمان بالله وعبادته إياه. فيخاطب المسجد. يقول:" انظر إلى ذوقي وشوقي أنا الهندي الكافر، على شفتي صلوات وتسبيح ، وفي قلبي صلوات وتسبيح. إن شوقي للحن، و رغبتي في الناي، وتسري في عروقي نغمة "هو الله".(ص124)

نعت نفسه بالكافر مع أنه لم يكنه يوماً، ولكنه عاد إلى أصله برهمياً قبل أن يسلم أحد جدوده(13)، إلا أنه قدم مثالاً حياً للرؤية الأرضية المحدودة، في مقابل الرؤية الروحية التي لا تحد. فالمؤمن

بروحه المطلقة يشعر أن الله تعالى في كل نبضة من نبضات قلبه، ولحن من ألحان الخلود في عالم يقينه، وهو عالم ليس من جنسه عالم البشر المادي.

صفة المسجد :

الصفة التي قدمها إقبال للمسجد، هي صفة الجلال والجمال؛ فهو – بتقديم صوفي المنحى جليل و جميل، الجلال قبل الجمال. والصفتان هاتان يتنزهان عن المادة ، ويسلكان إلى الروح سبيلاً. والمسجد يوحي بأبعد من شكله الخارجي؛ فإن كان جلاله وجماله جذبا الصوفي إليه ليتجلى عنده مبتغاه، فإن فناءه الواسع وأعمدته الكثيرة، لتذكره بزحام النخيل في صحراء الشام، ونوره بنور الوادي الأيمن على سقفه و بابه، بل إن منارته الشامخة هي كما يتخيلها (موضع تجلي جبريل). ويؤكد إقبال أن المسلم لا يندثر، وأن المسجد هو دليل بقائه، وكأنه يوحي بأن المسلم الورع باقٍ في النفوس لا ينزاح عنها. ويحتفي إقبال بالأذان لأنه – مثلما قال: الصوت الكاشف عن سر موسى و إبراهيم عليهما السلام. إنه ينطلق من المكان إلى اللامكان لأن الأخير غير محدود أفقاً وكياناً.

وقد يصل تفكير بعضهم حين يستقرئ وجود ذكرٍ للصوفي في علاقته بالمسجد، إلى أن هناك رابطاً في المنحى بين عشق إقبال للمسجد بصفته طريقاً رمزياً إلى محبته لله، وعشق المتصوفة للمرأة بصفتها الروحية . إن هذا وذاك إن هو إلا مسلك لإيصال تلك المحبة ذاتها لله تعالى. فالمسجد والمرأة تحولا من الصفة المادية إلى الصفة الروحية في أداء كل منهما الرمزي في سياقه. فكل وصف، مهما أغرق في المادة هنا، يكون باعثاً للروح. فالجلال والجمال صفتان عظيمتان من صفات الله. وكذلك الأرض كالسماء مفتوحة على ذكر إله واحد فرد صمد، لأنه موجود فيهما، وهما معموران به، ومزدانان بأنواره.

العبد المؤمن:

ويذكر إقبال في لحظة وقوفه في المسجد صفات العبد المؤمن، فالمسلم هو العاشق الحقيقي لله، وقد أعطاه خصالاً لم يعطها غيره، ومن أجل ذلك فإن المسلم في عمق عشقه الإلهي لا يزول روحاً وإن زال جسداً. إنه يد الله وصانع الخير مثلما وصفه إقبال: " يد العبد المؤمن هي يد الله. فهو القوي، والخالق، والمبدع، والصانع. هو عبد ملكي الصفات وجبلته ترابية ونورانية ".(ص126). فهو صانع الخير، وكلما في يده من جمال يذكر بمال الله وجلاله. وإذا نظرنا إليه محارباً وجدنا سيف المسلم هو سيف في الحق، لذا هو أصيل، ودرعه

محبوك بـ" لا إله إلا الله". ثم إن طريقه يصنعها بظل سيفه، وخلاصة منهجه: (لا إله إلا الله)؛ فكل مكان له فيه موقع: البحر وموجه، والأنهار ومجراها في النيل، ودجلة، والدانوب.

إن في هذا الصرح الديني العظيم ينكشف سر هذا العبد المؤمن، ممثلاً بعمله الجاد (حرارة أيامه) وهدوء لياليه - كناية عن اطمئنان نفسه؛ إذ لا يشغلها سوى صدق إيمانه. وخيال المؤمن محلق في أقصى الآفاق، لكن مقامه يظل عالياً بعمله وإخلاصه فيه. وهو بالنشوة والشوق والدلال يحل كل حاجاته. إن العبد المؤمن هو عبد لكنه يتحلى بصفات الملوك، ومع أنه ترابي المنبع، فإنه نوراني المآل. وبذا تلتقي عند العبد المؤمن التناقضات: تراه في الأمن رقيقاً لكنه – لحظة الطلب - جامح متحمس. ومن هنا يلتقي عنده العشق والعقل. له ميزة العلو في احتدام المحفل، ولدى مجلس الآفاق.

المسجد كعبة:

كان إقبال مأخوذاً بالفن الذي صنع معجزة المسجد؛ لذلك شبه المسجد بكعبة أرباب الفنون، إلا أنه يشكل للدين سطوة. إن المسجد في أرض الأندلس حرم. ولدى ذكر الأندلس مر في خاطر إقبال ذكرى أولئك الأبطال المسلمين الفرسان العرب، الذين مثلوا الصدق واليقين. وهم أبرزوا الإسلام رمزاً غريباً عن الأرض هناك، لكنه راسخ في الحكم. إنهم بهذا علموا الشرق والغرب أن غنى القلب أكبر من كل غنى. لقد رأى في عقولهم نبراساً للطريق؛ ففي الوقت الذي كانت أوروبا تغرق في الظلمات، صارت الأندلس وظلت بتضحياتهم. إن آثارهم العظيمة باقية تحكي أعمالهم الراسخة، يملؤها أريج اليمَن، وطوابع الحجاز في عويلها حتى اليوم. ومع كل هذا الفخار بالمجد المسطر بجهود الفرسان العظام، فقد ختم القول هنا بألم دفين على أن فضاء المسجد لم يرتفع فيه الأذان، قال: "في أرضك وسمائك عينُ النجوم، وا أسفاه! إن فضاءك لم يرفع فيه الأذان منذ قرون".(ص127).

الدعوة للتجديد:

مرت بنا أفكار إقبال حول المسجد فكانت درساً في انتفاضتها المرجوة. وهومتفائل فيما يضطرب به قلب المسلم، بل رآه سراً إلهياً. ومن هنا أتت أفكار محمد إقبال التي تدعو للتجديد وعدم الجمود.إنه هنا يتأسى بحركة الإصلاح في ألمانيا التي رفضت عصمة الكنيسة وجعلته هباء منثوراً. لقد جعل مما حدث في ألمانيا وفرنسا درساً؛ على بلاد المسلمين أن تتعلم منه في الأيام القادمة. إنه يعيش الأمل القادم بإنجازات الأمس العظيمة،

دون أن يحسب للزمن أي حساب: طال أم قصر.

وهو يرسم للأمل القادم هذا صوراً مثيرة: تجمع السحابة والجبل، والشفق، والياقوت وابنة الفلاح البسيطة في ربقة واحدة، كما سيأتي. كل هذا الجمال القابع في الصورة والقلب لدى إقبال، تخيله كنزاً من فعل الماضي، ولا بد له أن يظهر في يوم آتٍ مع عزم المسلم الذي يمور في داخله ولا يتوقف. إنه مجموع في قوله الآتي:

(إن سحابة وادي الجبال غارقة في الشفق، وقد تركت الشمس أكداساً من الياقوت البدخشي، وأغنية ابنة الفلاح بسيطة مؤثرة، وكلها فيض عهد الشباب لسفينة القلب). (ص129)

نهر قرطبة؛ وصرخة ثائر:

خاطب إقبال نهر قرطبة الكبير، وسأله إن كان قد شهد ساحله حكماً لأي عصر آخر؟ ولأن نهر قرطبة كجبل ابن خفاجة الأندلسي باقٍ يسجل الأحداث التي مرت وتمر به(14)، فقد سأله عن عصر آخر قاصداً عصر المسلمين السالف. لقد جره السؤال للكشف عما يحلم به من عصر جديد قادم مأمول، وهو ما أسماه بالعالم الجديد الذي ما زال حكما بيد القدر، لكنه معروف لديه لا يحجبه عن رؤية القلب حجاب، وما زال علمه سراً من أسرار قلبه؛ ولو أفصح عنه لانفجر صارخا صرخة لا يحتمله االغرب؟! إن صرخته هي الثورة الحلم، فحلمه الأبدي هو الأمل الذي لن يتحقق إلا بثورة لا تهدأ. قال: "الحياة التي ليس فيها ثورة هي موت، وصراع الثورة هي الحياة لروح الأمم. والشعب الذي على هيئة سيف في يد القدر تحسب أعمالهم في كل عصر. إن جميع النقوش لا تكتمل بدون دماء القلب، وبدون دماء القلب يكون التفكير في النغمة ناقص ".(ص129-130)

هذه الصرخة رسالة للأمة الإسلامية في هذا الموقف العظيم. إنها ليست بكاءً على الأطلال، ولكنها بشارة انفراج أمل قادم بثورة زادُها دمُ القلوب المؤمنة. ولعلي أختم القول بفقرة من كتاب: (روائع إقبال) ختم بها العلامة الندوي وقفة مع المسجد. قال: "هذا هو سر الخلود والبقاء للآداب والأفكار والإنتاج، وهذا – حسب رأيه! - سر تفاهة الأدب الجديد، الذي يولد سريعاً، ويموت سريعاً، وهذا سر التأثير والخلود في شعر إقبال وإنتاجه. فهل يسمع أدباؤنا وشعراؤنا؟!" (15).

الخاتمة:

تبين لنا بعد دراسة مكثفة للمكان عامه وخاصه عند إقبال؛ أن الشاعر لم يكن يُعنَى بالأوصاف الظاهرية أو المادية للمكان، فكل مادة هي في شعره معنى وروح، وبذلك اتخذ المكان نقطة البدء لرحلة باذخة

بث فيها أفكاره وفلسفته في الحياة والوجود، موظفاً في ذلك عقيدته الدينية الإسلامية تحديداً، أي أن المكان ما هو إلا فضاء للانطلاق منه إلى ما يبتغي بثه من أفكار وآمال. ومن المكان الواسع: الأرض، فهي عند إقبال قبة زرقاء فيها الغرب وبوائقه، وفيها المسلم ومآثره؛ إنها تجمع بين المتناقضات المتصارعة كالغرب والشرق، والقديم والجديد مثلاً. لكنها في رؤيته هي ميدان المسلم الذي تكون القطاة عنده شاهيناً حسب تعبيره.

وإقبال في الوصف- غالباً - ما يستخدم الصورة الموحية بدلاً من الفكرة المجردة، مثلما فعل في صورة القطا والشاهين السابقة. وقد كثر لديه استخدام المفارقات العجيبة مثل قوله في ديوان أرمغان حجاز: صارت الدنيا بالشمس أكثر ظلمة، صوابها جميعه خطأ. وهو لا يقول هذا عبثاً، وإنما يصدر فيه عن فلسفة يقينية لديه. لقد وردت في تعبيراته بعض الكلمات المنزاحة عن معناها المألوف إلى ضده، مثل كلمة الاحتراق أي الذوبان الروحي، وكلمة الاضطراب، أي الحيوية والتغيير في الدنيا وصولاً إلى السكينة. ومثلها كلمتا الضجيج والفراق، فهما يوحيان بالتحول أو الحركة والنشاط، لأن السكون والهدوء والصمت والوصال نهايات لا يعرفها إقبال. فهو الذي اتخذ الصراع والحركة والتغيير منهج حياة.

هناك كلمات هي معدن الفلسفة لديه مثل: كلمة السُّكْر؛ أي الاندماج الروحي، وكلمة العشق؛ أي المحبة في الله.(16) وتكررت عنده عبارة (اللامكان) في أكثر من موقع، وأعتقد – كما ذكرت في تضاعيف البحث – أنها تعني الملكوت الإلهي الذي لا يحس أو يرى، فهي تؤدي معنى مختلفاً، بل معاكساً لمعنى المكان الأرضي المعلوم. وهكذا؛ يمكن تلخيص المكان عند محمد إقبال - حسب ما أنجزه البحث- بكلمات: فالمكان في معرفة إقبال وفلسفته هو فضاء واسع تسبح فيه رؤى إقبالية خاصة، لكنها نبع روحه الدينية الصافية النقية تجاه الحياة والإنسان. وأحب أن أختم بأبيات ثلاثة من قصيدته الشهيرة عند ضريح الحكيم سنائي الغزنوي قال:

" لقد أثنوْا على شعري في العراق وفارس، فهذا الكافر الهندي يسفك الماء، بلا سيف أو رمح".(17)

رحم الله إقبالاً شاعر الإسلام الفذ، الذي رحل جسداً، وبقي روحاً نقية حية نضرة في شعره العظيم المميز في فكره المضيء، وفنه الباذخ الرفيع.

الهوامش

[1]() انظر في حياة إقبال؛ عبد الوهاب عزام: محمد إقبال: سيرته وفلسفته وشعره. نشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012.

[2]() باشلار، جاستون: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، بغداد، 1980، ص 37.

[3]() انظر في جماليات التلقي واستجابة القارئ المراجع الآتية:

- هولب، روبرت: نظرية التلقي،ترجمة عز الدين إسماعيل، النادي الأدبي الثقافي، جدة، 1994.
- صالح، بشرى موسى: نظرية التلقي- أصول وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2001.
- أيزر، فولفغانغ: آفاق نقد استجابة القارئ، ترجمة أحمد بوحسن، ومراجعة محمد مفتاح، ضمن كتاب: من قضايا التلقي والتأويل، نشر جامعة محمدالخامس، الرباط،1994.

[4]() انظر: فضل، صلاح: بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والعلوم والآداب، الكويت، 1992. والتعريف يستند إلى بارت في بحثه: (من العمل إلى النص، وغيره). وانظر: كذلك ناصف، مصطفى: اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1995. ص 126.

[5]() إقبال، محمد: ديوان من مثنويات محمد إقبال: ترجمة يوسف عبد الفتاح فرج،مراجعة وتصدير محمد علاء الدين منصور، الجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002 ص 20.

[6]() سورة الأنبياء، آية 105.

[7]() ديوان من مثنويات محمد إقبال (مرجع سابق). انظر الصفحات على التوالي: 26،23، 34، 43، 52، 64، 66، 69، 83، 95.

[8]() [إلا الله] إضافة من الباحث.

[9]() إقبال، محمد: ديوان رسالة المشرق، ترجمة وتعليق سكينة قدور، منشورات مكتبة اقرأ، قسنطينة، الجزائر، 2012. والأفكار في الصفحات الآتية وهي تحمل الأرقام : 112، 116، 118، 119، 124، 125، 132،128، 133، 134؛ على التوالي.

[10]() إقبال، محمد: ديوان أرمغان حجاز، ترجمة ودراسة سمير عبد الحميد إبراهيم، المكتبة العلمية ومطبعتها، لاهور، باكستان، 1976.

[11]() الندوي، علي الحسني، روائع إقبال، دار القلم، دمشق، 1999، ص162-168.

([12])إقبال، محمد: ديوان جناح جبريل، نقله إلى العربية وعلق عليه، جلال السعيد الحفناوي، مراجعة محمدعلاءالدين منصور، المجلس الأعلى للثقافة،2003. ص 121-130.

[13]() ينتسب محمد إقبال إلى أسرة برهمية. وقد أسلم أحد جدوده قبل ثلاثة قرون على يد الشيخ شاه همداني، أحد شيوخ المسلمين في ذلك الوقت. انظر عزام، عبدالوهاب: محمد إقبال – سيرته وفلسفته وشعره، (مرجع سابق) ص 24 وما بعدها.

[14]()ابن خفاجة، ديوان ابن خفاجة الأندلسي، تحقيق عبد الله سنده (قصيدة وصف الجبل)، نشردار المعرفة، بيروت- لبنان، 2006، ص 48.

[15]() ديوان جناح جبريل (مرجع سابق)، ص 143 – 148.

[16]() انظر: إقبال والتصوف، حسون، علي: فلسفة إقبال، ط 3، دوما- سوريا، 2002 ص57-67.

([17]) ديوان جناح جبريل (مرجع سابق) ص 38.